شخصية مبادرة

محمد بن عبدالله الفريح - كاتب ومفكر
malfriah@obeikan.com.sa
@ malfriah

في إحدى أمسيات شهر ديسمبر عام 1955 الباردة جمعت (روزا باركس) ذات البشرة السمراء التي تعمل خياطة حاجاتها، وتجهزت للعودة إلى بيتها بعد يوم من العمل الشاق المضني، مشت روزا في الشارع تحتضن حقيبتها مستمدة منها بعض الدفء اللذيذ.

التفتت (روزا) يمنة ويسرة، ثم عبرت الطريق، ووقفت تنتظر الحافلة؛ كي تقلّها إلى وجهتها، وفي أثناء وقوفها الذي استمر عشر دقائق كانت تشاهد في ألم منظرًا مألوفًا في أمريكا آنذاك، وهو قيام الرجل الأسود من كرسيه؛ ليجلس مكانه رجل أبيض.

لم يكن هذا السلوك وقتها نابعًا من روح أخوية، أو لمسة حضارية، بل إن القانون الأمريكي آنذاك كان يمنع منعًا باتًّا جلوس الرجل الأسود، وسيده الأبيض واقف، حتى إن كانت الجالسة امرأة سوداء عجوزًا، وكان الواقف شابًّا أبيض في عنفوان شبابه، فتلك مخالفة تُغرم عليها المرأة العجوز.

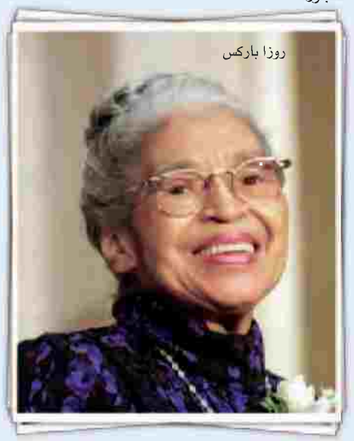
روزا باركس

وكان مشهورًا وقتها أن تجد لوحة معلّقة على باب أحد المحالّ التجارية أو المطاعم مكتوبًا عليها: (ممنوع دخول القطط والكلاب والرجل الأسود).

كل تلك الممارسات العنصرية كانت تصيب (روزا) بحالة من الحزن والألم والغضب، فإلى متى يعاملون على هذا النحو من الدونية وقلة المكانة؟!

لماذا يُحقرون، ويُزدرون، ويكونون دائمًا في آخر الصفوف، ويصنفون مع الحيوانات؟

وعندما وقفت الحافلة استقلّتها (روزا)، وقد أبرمت في صدرها أمرًا.

قلّبت بصرها يمنة ويسرة، فما أن وجدت مقعدًا خاليًا، حتى ارتمت عليه، وقد ضمّت حقيبتها إلى صدرها، وجلست تراقب الطريق الذي تأكله الحافلة في هدوء، إلى أن جاءت المحطة المقبلة، وصعد الركاب، وإذا بالحافلة ممتلئة، وبهدوء اتجه رجل أبيض إلى حيث تجلس (روزا) منتظرًا أن تفسح له المجال، لكنها ويا للعجب نظرت إليه غير مبالية، وعادت لتطالع الطريق مرة أخرى!

ثارت ثائرة الرجل الأبيض، وأخذ الركاب البيض يسبون (روزا) ويتوعدونها إن لم تقم من فورها، وتجلس الرجل الأبيض الواقف.

لكنها أبت، وأصرت على موقفها، فما كان من سائق الحافلة أمام هذا الخرق الواضح للقانون إلا أن يتجه مباشرة إلى الشرطة؛ كي تحقق مع تلك المرأة السوداء التي أزعجت السادة البيض!

وبالفعل تمّ التحقيق معها وتغريمها خمسة عشر دولارًا، نظير تعدّيها على حقوق الآخرين.

وهنا انطلقت الشرارة في سماء أمريكا، فثارت ثائرة السود في جميع الولايات، وقرّروا مقاطعة وسائل المواصلات، والمطالبة بحقوقهم بوصفهم بشرًا، لهم حق الحياة والمعاملة الكريمة.

استمرت حالة الغليان مدة طويلة، امتدت إلى 381 يومًا، وأصابت أمريكا بصداع مزمن.

وفي النهاية خرجت المحكمة بحكمها الذي نصر (روزا باركس) في محنتها، وتمّ إلغاء ذلك العرف الجائر وكثير من الأعراف والقوانين العنصرية.

وفي 27 أكتوبر عام 2001، بعد مرور 46 سنة على هذه الحادثة، تمّ إحياء ذكراها في التاريخ الأمريكي، حيث أعلن السيد ستيف هامب، مدير متحف هنري فورد في مدينة ديربورن في ميتشيجن عن شراء الحافلة القديمة المهترئة من موديل الأربعينيات التي وقعت فيها حادثة السيدة (روزا باركس) التي قدحت الزناد الذي دفع حركة الحقوق المدنية في أمريكا للاستيقاظ، بحيث تعدّل وضع السود.

وقد تمّ شراء الحافلة بمبلغ 492 ألف دولار أمريكي.

وبعد أن بلغت (روزا باركس) الثمانين من العمر، تذكر في كتاب صدر لها لاحقًا بعنوان «القوة الهادئة» عام 1994 بعض ما اعتمل في مشاعرها آنذاك، فتقول: «في ذلك اليوم تذكرت أجدادي وآبائي، والتجأت إلى اللّه، فأعطاني القوة التي يمنحها المستضعفين».

وفي 24 أكتوبر عام 2005 احتشد الآلاف من المشيعين الذين تجمعوا للمشاركة في جنازة (روزا باركس) رائدة الحقوق المدنية الأمريكية التي توفيت عن عمر يناهز 92 عامًا.

يوم بكى فيه الآلاف، وحضره رؤساء دول، ونكّس فيه علم أمريكا، وتمّ تكريمها بأن رقد جثمانها في أحد مباني الكونجرس، وهو إجراء تكريمي لا يحظى به سوى الرؤساء والوجوه البارزة.

ولم يحظَ بهذا الإجراء سوى 30 شخصًا منذ عام 1852، ولم يكن منهم امرأة واحدة.

ماتت (روزا) وعلى صدرها أعلى الأوسمة، فقد حصلت على الوسام الرئاسي للحرية عام 1996، والوسام الذهبي للكونجرس عام 1999، وهو أعلى تكريم مدني في البلاد. وفوق هذا وسام الحرية الذي أهدته لكل بني جنسها عبر كلمة: (لا) أشهر (لا) في تاريخ أمريكا.

تدبر: كل حدث تاريخي جلل، وكل موقف كبير مشرف، كان وراءه شخصية مبادرة تؤمن بقدرتها على قهر ما اصطلح الناس على تسميته (المستحيل)، فكيف يصبح المرء منا شخصية مبادرة؟ كيف يمكن أن نصنع بأيدنا العالم الذي نحيا فيه؟

أسئلة الكتابة: كتابة الحياة وكتابة العدم

شدري معمر علي - الجزائر

أسئلة الكتابة: كتابة الحياة وكتابة العدم ✺ المشتغلون بالأدب يثيرون بين الفينة والأخرى أسئلة حول الكتابة والهوية، ومن أسئلة الكتابة الجوهرية قدرتها على التواصل والتوصيل، التواصل عن طريق الأفكار التي يطرحها الكاتب وتوصيل رسالة معينة إلى قارئ ما وأجمل التواصل بين الأصدقاء هو التواصل عبر الكتابة فيشعر الكاتب بسعادة غامرة عندما يجد قارئا في بقعة من البقاع يتواصل معه ويناقشه ويحاوره والكتابة في أقصى مداها هي التي لها حظ من الوعي، التي تؤدي إلى المعرفة، يقول الدكتور (عمر مهيبل) في كتابه القيم (من النسق إلى الذات قراءات في الفكر الغربي المعاصر):

«إننا نباشر الكتابة ليس بمقتضى قانون العرض والطلب هذا ولكن باعتبارها هما أبدياً ونهما لا يروى كما ذكرت سابقاً، نباشر الكتابة بوصفها تحقيقاً لوجود طبيعي وتصوراً عقلياً واعياً أيضاً هذا النمط من الكتابة أسميه» الكتابة المرئية «وهي الكتابة التي ينطلق فيها شعاع الوعي من الذات إلى البنية الطبيعية والعكس أي أن الكتابة تكون بمثابة اختراق مزدوجة للبنية وللمخيلة في آن واحد فتحصل الكتابة بالمعنى المرئي وهي ليست إلا الكتابة المؤدية إلى المعرفة الدلالية الإرادية والواعية» الكتابة الخالدة التي تحدت الأزمنة وواجهت كل الإشكاليات والتهم هي هذه الكتابة المرئية.

فأبو حيان التوحيدي الذي عاش الفقر وأكل الحشيش وأحرق كتبه في لحظة ألم لم يكن يعلم أن كل أغنياء عصره سينساهم التاريخ ويبقى هو صفحة مشرقة في سجل الإنسانية لأنه كتب بصدق بعيداً عن الأطماع والحسابات والمصالح.

وأبوالعلاء المعري «رهين المحبسين» في سجنه الاختياري أطلق العنان لخياله فأبدع (رسالة الغفران) التي تأثر بها دانتي Dante alighieri فألف كتابه (ladivina comedia) الملهاة الإلهية.

عندما نتأمل كتابات أدبائنا نتساءل أسئلة بريئة: ماذا تضيف إلينا ؟ هل تخرجنا من الأزقة الموحلة إلى رحابة الإنسانية ؟، من ضيق المكان إلى سعة الدنيا ؟ هل تدفعنا إلى مطاردة المعرفة والبحث عن كنه الأشياء ؟ أنا أتساءل كقارئ قبل أن أكون كاتباً من كتاب الهامش يؤمن بقيم الخير والعدل والجمال بعيداً عن التعصب الفكري والانغلاق والتحزب، ماذا تضيف لي رواية كاتب مفعمة بالجنس «كتابة إروتيكية» إباحية بدعوى الرواية الجديدة وفي المقابل أقرأ أن رواية (الكوخ عم توم) لكاتبة أمريكية مغمورة تشعل ثورة وبفضلها يتحرر العبيد، رواية تدفع إلى الحرية والإنعتاق ورواية (الشيخ والبحر) للكاتب الأمريكي أرنست همنجواي يقرأها الرئيس الكوبي (فيدال كاسترو) فيقاوم، رواية تحدي الصعاب ومقاومة القهر والتشبث بالأمل في دماسة الليالي.

وهناك الكتابة اللامرئية وندخل ضمنها هاته الكتابات العابرة الباهتة «هل نكتب وفقاً لمبدأ العرض والطلب فنسقط في العبودية المقننة والبذاءة اللفظية والتبسيط الممل فتفقد الكتابة عنفوانها وينطمس رونقها وتنحسر دلالتها حتى تلامس مراتب العدم».

✺ **الكتابة الكونية:**

أنا لا أتصور الكاتب مهما كانت عقيدته وديانته إلا كاتباً كونياً حتى لو انطلق من بيئته الصغيرة، هناك قيم إنسانية جوهرية يدافع عنها باستماتة: قيم الخير والعدل والجمال كما قلت سابقاً، فالكاتب الحقيقي هو الذي ينفتح على الآخر ويدافع عن الإنسان مهما كان لونه وجنسه، وأنا عندما أتأمل في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ) أتساءل أليس هدف الكاتب هو التعارف الإنساني وكيف يصل إلى هذا التعارف وعن أي طريق؟ لنتصور الكاتب العربي المسلم يريد أن يتعارف مع أمريكي، إن أفضل وسيلة للتعارف هو أن يتقن لغته ويعرف ثقافته وحضارته والعكس صحيح.

من هنا نعلم أن في ثقافتنا العربية الإسلامية دعوة للحوار الثقافي والديني والجدال بالتي هي أحسن وليس بالتي هي أخشن «التطرف بكل أنواعه» وهي دعوة تفند أفكار بعض منظري الحروب والدمار (صمويل هنتجتون) صاحب نظرية (صدام الحضارات).

✺ **من أجل إعادة النظر في مسألة الكتابة الجزائرية:**

قد يستغرب القارئ من هذا الطرح لكن الواقع يفرض ذلك، هزالة الإبداع الجزائري ورداءته وغيابه عن الساحة الإبداعية العربية والعالمية، ما هو السبب ؟ إني متيقن بعد متابعة سنوات طويلة للإبداع العربي أن السبب الرئيسي هو غربة الكاتب، الكاتب الجزائري يكتب لقارئ غير جزائري «لا يدرس الكاتب ميولات القارئ ورغباته أي يقوم بدراسة نفسية واجتماعية لهذا القارئ» فالكاتب الذي لا يطرح على نفسه هذه الأسئلة: لمن أكتب؟ وكيف أكتب ؟ هو كاتب فاشل فالكتاب العالميون يضعون في الحسبان القارئ فيستعملون معه أحسن الطرق والأساليب فلا نتعجب إذن إذا وجدنا في أمريكا معهداً وطنياً لتكوين الأدباء، يتعلمون فيه أفضل التقنيات وأحدثها، وهذا أمبيرتو إيكو «بعد عشرين عاماً من نشر روايته الشهيرة» اسم الوردة «نشر روايته الجديدة baudilino» فيقول إيكو: «أنه غير من أسلوبه في هذه الرواية إلى الأسلوب الشعبي» هل فكر كتابنا في تغيير الأسلوب والأفكار فالكتابة علم قبل أن تكون موهبة «ولعل كتاب الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا» (jacques derrida) علم الكتابة delagrammatologie «هو من أطرف الكتب في الفكر الغربي المعاصر التي طرحت علاقة الكتابة بالكلام أو اللفظ وأيهما أكثر تأثيرا في الآخر» وقد أكد الكاتب رابح خيدوسي: «أن الرواية الجزائرية من حيث الموضوع لم تصل بعد إلى قمة نضج الرواية الإنسانية المواكبة حضارياً إذ يقول: غالباً ما نجد روائياً يسقط في فخ إيديولوجي فمرة تجدها تقدس الثورة، القوة على حساب العقل والحرية ومرة أخرى تشيد اتجاه حزبي يساري وأخرى تغرق في الذاتية الرومانسية وأخرى رواية استعراضية تقريرية» وقد صدق عمر مهيبل عندما دعا إلى نمط كتابي جديد فهو يقول في نفس المرجع:

«فإن التجربة بينت لنا انه يتحتم علينا في زمن التقاطع هذا أن نبلور نمطاً كتابياً جديداً يتعدى الكتابات الساذجة التي هي أقرب ما تكون إلى السجال الإيديولوجي ونمط يتعدى الكتابات التي تحاول اختزالنا في رموز لغوية منتظمة في قواعد رياضية كما يتعدى الكتابات التي تجعلنا نسبح في عالم الميثولوجيا والأوهام لنصل إلى نمط جديد أسميه (الكتابة المتدفقة).

ختاماً فهذه دعوة إلى كتابنا أن يراجعوا أفكارهم وكتاباتهم، أن يفتحوا نقاشاً فكرياً حول موضوع الكتابة، فليست الكتابة عبثاً ولا نزوات عابرة، إنها لحظة وعي واحتراق واختراق إنها مرفأ لتجميع قوارب الرحلة وبسط شراعاتها المطوية مع ما في ذلك من مجازفة، إنها مغامرة غير مضمونة النتائج كما يراها المرحوم بختي بن عودة.

هوامش :

(1) من النسق إلى الذات :
قراءات في الفكر الغربي المعاصر ص 14
منشورات الاختلاف

(2) جريدة أخبار الأدب ص 13 يناير 2002
العدد 444

(3) من النسق إلى الذات ص 13

(4) ملحق جريدة أخبار (الأخبار الثقافية) ص 12
العدد 06 مقال (واقع الرواية) لحسينة . ع

(5) من النسق إلى الذات

أنا لست (شخصا)

الكاتبة: غادة عبد الله العمودي

galamoudi@gmail.com

من أهم الأسئلة التي ينبغي أن يوجه لها الاهتمام في كل مرحلة حضارية يعيشها الإنسان ، هي الأسئلة المتعلقة بالذات الإنسانية. إن الإنسان بوصفه "ذاتا" و"معنى" يظل إشكالية لا تفنى لتداول الأفكار وإثارة القضايا حوله . إن بحث الإنسان في ذاته يأتي نتيجة خصيصته الفريدة ، فالإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يحاول أن "يعي" ذاته ، أي أن "الوعي" بأن الإنسان يحيا ويحس ويعرف ببصيرته أنه يحيا ويحس ، يجعل الإنسان يتخذ من ذاته موضوع أبحاثه أو أحكامه ، وبهذا يمكنه أن يرفع إدراكاته وشعوره من مستوى الحياة البدائية إلى مستوى "المعاني" ، متجاوزا "ذاته" في أعماله، من هنا يكتسب الإنسان كرامته وامتيازه. إن ركوب الرحلة باتجاه "ذاتنا" لهو من أمتع الأنشطة التي يمكن أن نقوم بها في حياتنا ! وحين يتوقف السؤال حول الإنسان أو عنه ، فإن مسيرة الوجود تكون قد وصلت إلى نفق مظلم يستحيل معه تجدد الحياة، لأن الحياة معنية بالدرجة الأولى بغائيتها وهي الوجود الإنساني.

من الأسئلة المصيرية أن نتسائل: كيف تتشكّل شخصياتنا !؟ وكيف يتطور الجزء المعنوي في بنائنا ما وراء العضوي؟!

إن " الشخصية" هي فعل التشخصن: وهو البحث المستمر عن شخصية جديدة يتم تقصمها من خلال دوامة التعدد والتطور اللذين هما سمة الحياة، واللذان لا ينتهيان إلا عندما يموت الإنسان. فالشخصية هي محصلة التفاعلات التي تكون طرفاً فاعلاً فيها سواء استشعرنا ذلك أم لا؛ تفاعلاتنا مع حركة الزمن وتطور الحياة، فكل شيء في "الأنا" البشرية يتغير ويتعدد ولا شيء يبقى على حال واحدة ، سواء تعلق الأمر بالإنسان، أو بمحيطه النفسي والثقافي والاجتماعي والتاريخي، أو بالمفاهيم والأفكار، أو بالقيم والمواقف والرموز التي تؤطّر أفعاله وسلوكه، لذلك فإن الشخصانية هي "الاعتراف" الذي نقرّ عبره بضعفنا الإنساني وحاجتنا للتطور. وهكذا تتشكل شخصيتنا أي أننا بتفاعلنا نكوّن شخصياتنا، وهذا وجه من الحرية الذي نمارسه بالفطرة، فالحرية في معناها العميق هي: إمكانية الفعل في محيط مفروض علينا للوصول إلى هدف محدد نطمح إليه. لذلك يختلف ويتعدد أفق الحرية بحسب الظرف الموجود فيه الإنسان، وبمعنى أدق بحسب شخصيته، فهناك: حرية الكاتب، وحرية السجين، وحرية العمّال، وحرية الشعوب المستعمَرة. والغريب أن هذا البناء للشخصية يأتي نتيجة غير مقصودة، فالقانون الوحيد للشخصية هو التغير والتشكل والفرز والبناء بفعل تغير الظروف المؤثرة فينا. ومن هنا يتضح لنا خطأ أن نطلق أحكاماً عامة وتامة وأبدية على شخصية الإنسان، نعم قد نقوّم سلوكه في مرحلة معينة، وداخل لحظة زمانية محددة، ووفق ظروف موقوتة، ولكن من الخطأ أن يمتد هذا الحكم على طول عمر الإنسان أو أن يصبح ثيمة نهائية له. إذ من غير المنطقي أن تطلب من الشخص أن يكون له موقف واحد ثابت على الدوام، لأن في ذلك استخفافاً بكثافة وجوده وغنى تحولاته، فالشخص ذو الموقف الواحد هو الذي لم يتشخصن بعد، أي أنه رضي أن يكون كائنا، والكينونة هي رتبة سابقة على التشخصن، ومن يرضى أن يظل كائنا فإنه يكون إما جباناً أو مفلساً من فعل التحدي ومجاهدة التجديد. وكلما اتسع الأفق المجتمعي بمكتسبات جديدة نمت الحياة النفسية والحياة العقلية، شريطة أن يكون النزوع في هذه المكتسبات يتجه نحو "التعالي" بالإنسان. ولذلك فإن من خصائص الجاهلية (أي عدم وجود الإنسان في علاقات اجتماعية، ومع عدم خضوعه لقانون يقوم على القيم) أن تتلاشى الشخصية المستقلة للإنسان "الجاهلي" ، حيث يذوب في المجموع، هذا المجموع قد يكون القبيلة أو العرق أو نحو ذلك، لأنه لا يملك شعوره الخاص بذاته ، فهذا الشعور إنما ينبثق عن وجود منظم للتفاعل بينه وبين المؤثرات من حوله وهو ناتج عن إحساسه هو بذاته أولاً. أي أننا نخدم الجماعة بقدر ما نشعر بذاتنا لا العكس، ولهذا فمن الخطأ أو تقوم الأحزاب السياسية في عصرنا الحديث بديلا عن القبيلة والعصبية العرقية في المجتمعات البدائية، حيث يفنى فيها الناخبون على حساب وعيهم بذاتيتهم، ويظهر هذا الذوبان في التسليم الأعمى لقرارات الحزب حتى وإن كانت غير ذات جدوى دون وضعها على ميزان التحكيم العقلي.

من هذا الفهم لتكوين الشخصية؛ فإننا نعتبر من الخطورة والخطأ معا أن يتم إدراج اختبارات الشخصية في التقدم على الوظائف، حيث يتم الحكم على الإنسان حكماً جامداً يعطّل قدرته على التغير والتجدد. إن مشكلتنا مع أنفسنا تظهر حين نود من هذا الجزء المتغير فينا أن يكون ثابتاً أو نهائياً، فهذا يخالف طبيعته ويخالف سنة التغير الكونية، لأن الشخص هو حصيلة شخصيات لا شخصية واحدة، طالما أن العلاقات الاجتماعية والسيكلوجية والتاريخية والثقافية التي تفصّله؛ هي في تغير مستمر وتتخذ أحوالا لا حصر لها.

والشخصية ليست خطيئة عالم الإنسان، والتشخصن ليس نقمة إنما هو نعمة وعلامة على الحيوية، والشخصية هي نواة "النفي" أو القدرة على قول "لا" التي يتميز بها النوع البشري عن غيره من الكائنات، فالشخصانية تبتدئ عندما يرفض الشخص الطاعة العمياء (طاعة الأشخاص وطاعة الأشياء)، ويعترف بالقيمة العليا للعقل والفكر، فالإنسان مخلوق حرّ وقادر على الرفض والتغيير، إذ بدون نفي ماهو موجود لا يمكن أن يحصل أي تغيير. إننا يمكن أن نعتبر الشخصية مثل اللوحة الزجاجية التي تتغير تبعاً لما ينعكس عليها من الألوان والأضواء والأشكال – لو تتبعنا كلمة شخص (persona) باللاتينية، نجد أنها تدل على القناع أو المظهر الجسماني الخارجي للإنسان، أو على شبحه الظاهر، أي ظلّه. أليست كلمة (persona)، بالنسبة للواقع إلا ظلا له، ومجرد كائن مسرحي مقنع (أحيانا بقناع المأساة، وأحيانا بقناع المهزلة) ؟! ثم صارت تدل منذ عهد (شيشرون) على " الدور" الذي يلعبه الإنسان المقنع في التمثيلية – مما يدل على الطابع المتغير والمتحرك للشخصية. هذا الفهم لوجود خارجي للشخصية يمكّننا من ملاحظة التغير وتصحيحه وتعديله حسب مقتضى الأمر. ولأنه لابد من وجود تفاعل يكشفه هذا اللوح الزجاجي، ولأن هذا التفاعل يحتاج إلى سيطرة، فإن عنصر السيطرة يكمن في "النفس". فالنفس هي مجمع القوى في الكلّ الإنساني. ففيها قوى الروح والعقل والقلب والجسد، لذلك فإن قدرتها في السيطرة على توازن هذه القوى؛ أساسي لا مجال لعرقلته مدة معيشة الإنسان على الأرض.

نداء لأمة

ريم علي الحاجي محمد

إن نظرة خاطفة لأحوال المجتمع المحلي بصفة خاصة والأمة الإسلامية على وجه العموم كفيلة بأن نستشعر مدى خطورة ما يحدث حولنا من أزمات سياسية ثقافية دينية شأنها زعزعة الأمن الذاتي للنفس البشرية وجعلها تعيش في جو مشحون بالتوتر وفكر مشوش لا يتمكن من رؤية الحقيقة المغيبة بوضوح . وهذه الحالة ينعكس أثرها بشكل مباشر على البنية الرئيسية للمجتمع فهي بقصد أو بدون قصد تعمد إلى تكسير روابط المجتمع وتفكيكه إلى أفراد متفرقين متباعدين ، ولا يخفى علينا أن الفرد إن لم يكن متفاعلاً مع بقية الأفراد في المجتمع فلن يكون لوجوده تأثير ملحوظ، لأن الإتحاد مع بقية الأفراد ينتجع عنه مجتمع مستقر متماسك قادر على مواجهة الصعاب. وقد يقول البعض أن هذا نتاج للمؤامرة الغربية والحرب التي يشنها علينا الكفار لتدمير الأمة الإسلامية وشغل أفرادها بتوافه الأمور وبخلافاتهم الداخلية وتبقى سيادة العالم لهم للأبد. ربما كان ذلك صحيحاً إلى حد ما في فترة من فترات الزمن التي مرت بها البشرية لكن الحقيقة وبصوت عالٍ أقولها: إن سبب التحلل الإجتماعي الذي نعيشه هو ضعف في بناء الفرد وتكوينه المعرفي والثقافي وضعف في قدرته على التمسك بمباديء دينه. نعم يأسادة لقد كنا نحن أنفسنا معول الهدم الذي هدم أركان المجتمع على أفراده كالتي أنقضت غزلها. أيضاً نحن وللأسف الشديد لم نعد نبالي بالبناء فأجيالنا الجديدة تنشأ وتتربى بطريقة أقرب للخطأ منها للصواب، بل خدرنا عقولهم بتلك الأجهزة التي أصبح يحملها الطفل ذو السنتين قبل الكبير، وإن كانت هذه البداية لكم أن تتخيلو البقية، جيل غير مبالٍ بشيء لا يعير الوقت والعلم والدين أي اهتمام. محصوله الديني صفر، فلا يعرف أبسط الأمور عن دينه ولا رغبة له في تحصيل العلوم والمعرفة، وإن تميز بشيء فهو السخط والتذمر والسخرية ورمي أسباب الفشل على غيره. هنا أسمحو لي بالقول: إن لم نكلف أنفسنا عناء البناء لذواتنا فلا يحق لنا أن نقف ونقول لقد دمرنا الغرب فأنجدونا.

بوضوح أبعادها، والخروج هنا هو خروج "النفس" لتراقب "الشخصية": ما حجم: قدراتها، و مؤهلاتها، وماذا تحمل من قوة ومعرفة، ومدى فاعليتها في الصمود.

إن الحياة في الطبيعة تتلون وتتكيف وتغيِّر من تكونيها لتتلاءم مع بيئتها على الدوام، ولكنها في جوهرها تظل حياة مسيطرة ولا تُمسخ إلى أشياء أخرى كما يحصل معنا نحن البشر. ولا مفر لنا من الاعتراف بأنه لا وجود لصورة الإنسان " المطلق" الخالي من التأثر بالعوامل الحياتية والزمانية والمكانية، لأننا حتى ونحن أجنّة في بطون أمهاتنا نتلقى ما يجعلنا نتشكل عضوياً ونفسياً، فلا صحة لقصة طفل الغابة الذي ينشأ في الطبيعة بعيداً عن الحوادث والظروف! إن الإنسان الكائن "بكينونته المجردة" لاوجود له، إننا نخضع "بكائننا" للأسباب الكونية والمجتمعية، وندخل عالم القيم والتعليلات والمعايير "بتشخصننا" إذ لا نكتفي بمعاناة الانفعالات، سلبيا، بل نعمل، ونرد الأفعال، ونتحمل مسؤولية ما نفعل، لأننا كائنات حرة خلّاقة لأفعالها .. هذا التوتر نحو الكمال يجعل الإنسان يسمو لأن يصير مالكاً للكون، ومهما حاولنا الخروج من شخصيتنا فإننا في الحقيقة نخرج إلى شخصيات أخرى نعيد تشكيلها بأحلامنا ورغباتنا ورفضنا لكل ماهو ناقص ومشوه في تصورنا، لنصل إلى وضع نصير فيه بصورة أجمل وأقوى مما تنعكس روعته على اللوح الزجاجي ..." الشخصية".

• لقراءة المزيد حول تطورنا من "الكائن" إلى " الشخص" يمكن قراءة كتاب: دراسات في الشخصيانية الواقعية – من الكائن إلى الشخص، تأليف محمد عزيز الحبابي، طبعة دار المعارف بمصر.

• الشخصيانية الإسلامية، محمد عزيز الحبابي، مكتبة الدراسات الفلسفية، الطبعة الثانية، طبعة دار المعارف بمصر.

مفهوم الإبداع

ريمه الخاني - سوريا

1 – مفهوم الإبداع:

يحتوي مصطلح "إبداع" على أنواع وتفرعات عديدة، تضم مفاهيم كثيرة، تقدم لنا هذا المفهوم بطريقة موسعة ومسهبة، ذلك لأنه عالم قائم بذاته بنماذجه الفريدة وعطائه اللامحدود، فله خصوصياته التي تجعله مصطلحاً يستأهل العناية والبحث العميق، والذي يحث فضولنا لمعرفة هذا العالم الجميل جداً والممتع بكل أركانه.

وقد عرفه الباحثون بطرق شتى نظراً لمصدر انبثاقه فعرفه الأستاذ "رضوان الشهال" بقوله: إن الجو الشعري مثلاً يتكون، مثله مثل كل الظواهر، من الطاقة الإبداعية التي نودعها في الفن، وهي عبارة عن شحنة انفعالية أساساً. [1]

ويمكننا تعريف الإبداع بقولنا: (الإبداع هو القدرة على تكوين أبنية أو تنظيمات جديدة).

ويعرفه (برونر) بأنه: (العمل أو الفعل الذي يؤدي إلى الدهشة والإعجاب).

وتعرف الأديبة والناقدة "فاطمة الشيدي" الإبداع: هو عملية ترجع في الحقيقة إلى عملية واعية يقصد إليها الشاعر، وهي نتاج عملية بين الذات وموضوعها. [2]

والإبداع أيضاً: (مبادرة يبديها الفرد؛ تتمثل في قدرته على التخلص من السياق العادي للتفكير، وإتباع نمط جديد من التفكير). [3]

يعرفه الأستاذ "أحمد المثنى أبو شكير": الإبداع: عملية ذهنية واعية قوامها مجموعة من البنى الفنية واللغوية، والتي تسهم في توليد الجديد من النصوص، فيأتي النص الجديد ليختزن خلاصة التجربة الإبداعية للمبدع الذي أنتج هذا النص، ويصبح هذا النتاج اللغوي والمعنوي من ملاكه الفكري الخاص. [4]

وكما نرى كان هذا التعريف شاملاً لعنصر التجديد والملكة الخاصة، والتي يتميز بها الإبداع عموماً.

تعرفه الأستاذة شذى الميداني المرشدة النفسية السورية قائلة: (إنتاج الجديد النادر المختلف، المفيد فكراً أو عملاً، وهو بذلك يعتمد على الإنجاز الملموس). [5]

وهو ذو صلة بالتعريف السابق لكنه أكثر اختصاراً، وإذن فكون إنتاجك مختلفاً يعد من صميم الإبداع، ومن سره الفريد المميز؛ الذي يميز صاحبه وعمله .. لكن هل هذا يكفي لاستحقاق وصف (المبدع) ؟.

حقيقة من الصعب إيجاد تعريف واحد متفق عليه من قبل العلماء أو الفلاسفة للإبداع، فهو ظاهرة معقدة جداً أو جملة معقدة من الظواهر ذات وجوه وأبعاد مختلفة.

يعرف بارتلت للإبداع–CREATIVITY– فقد عرفه بأنه التفكير المغامر الذي يتميز بترك الطريق المرسوم مسابقاً والتخلص من القوالب المصاغة، والإقبال على التجربة، وإتاحة الفرصة للشيء لكي يؤدي إلى غيره. [6]

وتقول الأستاذة "لبنى العيسى" [7] حول سمات المبدع: إن العملية الإبداعية ليست منفصلة عن السمات العقلية والنفسية مثل الدافعية والمزاج والطبع والاستعداد والذكاء ومرونة التفكير.. والمبدع ليس شخصاً ذو اختلاف نوعي عن غيره، بل يمكن النظر إليه بصفته فرداً يختلف عن غيره بمقدار انتظام وظائفه العقلية والنفسية بصورة تجعله قادراً على إبداع الجديد وتنميته (أكثر من غيره).

يقول حول العامل النفسي في الإبداع الأستاذ "محمد زاهر الشماع": إن العلاقة بين الأدب والتحليل النفسي يبين أن الحياة الإنسانية مزيج معقد من الوعي واللاوعي، وبينهما تكمن القوة العازلة، أي عامل الكبت، فإذا كانت الكلمة أداة التعبير عن الخبرة الواعية، فإن تحليل الخطاب هو معبر المحلل إلى مضمون اللاوعي. [8]

في معرض حديث المؤلفة "د. ماجدة حمودة" [9] عن الروائي: "ماريو فارغاسيوسا"، عرضت وجهة نظر الأديبة وهي جديرة بالتوقف: نختصرها هنا: إن مسيرة الإبداع هي مسيرة التعب والصبر والتواضع، كانت نصائحه للشباب المقبل على الأدب: من أراد الإبداع يجب ألا يكون الميل الأدبي لديه وسيلة لتزجية الفراغ فقط، بل هو عمل دؤوب أيضاً.

ما السبب الذي يجعل المبدع يعيش مثل هذه العبودية للكتابة إلى درجة يهيبها حياته كلها؟:

إن السمة الأساسية للممارسة الأدبية أنها تمنح الكاتب متعة روحية داخلية، تهزل أمامها أية مكافأة مادية!، إذ يشعر بانسجام مع ذاته، بعد أن تم له تحقيقها على المستوى الإبداعي، مما يدفعه إلى تقديم أفضل ما لديه دون الإحساس البائس بأنه يبدد حياته.

هو خيار فطري ذاتي مصاغاً منذ الطفولة أو الشباب المبكر، ثم يأتي الخيار العقلاني لتعزيزه، وليس لصنعه من رأسه لأخمص قدميه!.

لعل من أهم مشكلات الإبداع الروائي تلك العلاقة الملتبسة بين الخيال والواقع، لهذا يبين "يوسا" أن الخيال يشكل ضرورة حيوية للروائي يفسح المجال لنسج حيوات خيالية تعلن رفضها للحياة الواقعية وانتقادها لها.

2 – مفهوم الخيال الأدبي:

يحيا وينمو الأدب في عالم من الخيال بأنواعه، يحلق ويسافر في دهاليز النفس الإنسانية ويربطها بالعالم الخارجي، يقول "جان روبنسكي" عن الخيال: إن الخيال الأدبي فرع خاص لملكة نفسية عامة جداً، لا ينفصل نشاطها عن نشاط الشعور، هو اختصاص الفلاسفة وعلماء النفس، أما النظرية الأدبية فقد استعانت في هذا المجال بمفهوم نشأ خارج نطاق الأدب لكنه ينسحب على قطاع واسع من الإنتاج الأدبي، ويقول في مكان آخر من كتابه: إن الأدب ما هو إلا ضرب من ضروب النشاط الخيالي، وما هو سوى قيمة عامة تشرح كيفية استخدام الإشارات اللفظية (المسموعة أو المنظورة) والاستعانة بالتصور الذهني، ويستعمل كلاهما دون إحالة مباشرة إلى الواقع التجريبي بغية الوصول إلى المتعة الجمالية. [10]

يقول رايان الفرنسي عن الخيال: كثيراً ما يأخذون العبقرية على أنها ثمرة من ثمار الخيال الصرف، مثل هذه الأعمال ينهض بها الكاتب التافه الذي استطاع أن يلم بالذوق الشائع بين الناس، لكن فولتير ومارمونتيل يريان أن الخيال موهبة ثمينة وأن الإلهام أقصى درجاته. [11]

وإن التخييل، كما يراه "يوسا" أكذوبة تخفي حقيقة عميقة، إنه الحياة التي لم تكن، والتي يتوق إليها المرء دون أن يحصل عليها، لهذا كان عليه اختلاقها.

ولو أردنا تعريف التخييل لوجدناه أنه الخداع باختصار، وكل رواية هي كذبة تحاول التظاهر بأنها حقيقة. أما الدافع للكتابة الروائية فهو التمرد المسالم. [12]

من جهة أخرى تقدم الأستاذة: "زيناء ليلى" [13] مفهوم الإبداع من زاوية أخرى فتقول:

– التجديد هو رؤية الأمور بنظرة جديدة ومن زاوية جديد.

وهذا لا ينسف الأساسات، بل يقدم لها فروعاً جديدة لأنها تتعلق بالسلوك التطبيقي، لا بالأساس أصلاً، فالجديد في زمننا ما عاد موجوداً لأننا بتنا نبني فوق البناء الأول، وهنا يتبلور معنا الفرق بين: التغيير والتطوير والتجديد والحديث والتنمية... كلها تأخذ المفاهيم من زاويتها المعينة: فالتحديث والتحسين يمضي بنفس المسار بإضافات بسيطة وإضاءات منيرة، بينما التطوير والتجديد، له فروعا عديدة وكأننا نرتفع أفقياً وعمودياً في البناء.

تحدد غالباً المفاهيم بالغاية على ألا تكون مضرة، بل تهدف للتنمية حصراً، لذا وفي عملنا عموماً كمتابعين لرسائل الدكتوراه، نعمل لإخراج مفاهيم جديدة مثل: الفن المعرفي الإبداعي، فنحن هنا لم نضف جديداً بل مزجنا وقمنا زاوية جديدة للعمل والبحث، مثل الفن الإبداعي الطبي.. الخ.. واللغة كذلك لا تتغير إنما تتغير الأنماط الأدبية.. وهكذا، وعليه فإن الإبداع يعرف بالقدرات الخارقة التي يمتلكها المبدع، ويتوقف إظهار الفرد المالك للقدرات الإبداعية نتائج المالك للقدرات الإبداعية نتائج بداعية، أو عدم إظهارها يتوقف على صفة الآثارية والطبيعية. [14] ويضيف الدكتور حسين جمعة أيضاً للتعريف، أنه استجابة غير مألوفة لكل انفعال وبمعنى آخر من العواطف الذاتية في البعد النفسي، تعد الأصل في إجراء التحولات الإبداعية على مختلف الصعد الفنية والثقافية والاجتماعية والزمانية والمكانية.

وهذا يقارب تعريف الإبداع عند الدكتورة "نجاح هارون": [15] هو عبارة عن عدم النظير وفي الاصطلاح: إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود [16]. فهل هذا يعني فعلاً التجديد؟

أما علم النفس الحديث فيعرفه بصورة مجسدة للذات المبدعة، فالتكوين النفسي وحده صانع الإبداع.

وعليه فيعرف الشعر هنا بأثر اللاوعي في الإبداع [17]، ويعرفه السجلماسي: الشعر هو الكلام المخيل المؤلف من أقوال موزونة ومتساوية وعند العرب مقفاة [18]، وبكل الأحوال تعتبر المصطلحات الإبداعية من صميم العمل الإبداعي أيضاً، يسوقنا هذا الأمر لزاوية أخرى هامة: جرى نقاشاً بيننا وبين الأستاذ "مصطفى إنشاصي" [19] حول الشعر والأدب والأبحاث، واجترار مواداً لم يعد لها سوقاً ولا قراء ، سواء بأفكارها أو بنوعيتها، وهنا يهمنا رؤية الموضوع من زاوية أخرى لباحثين غير أدباء، يقول الباحث إنشاصي حول ذلك:

– أشبع العروض دراسة وبحاث وزيادة ونقصان قديماً وحاضراً في الماجستير والدكتوراه وو... رسائل بالهبل عن كل صغيرة وكبيرة، ويكاد لا يقدم أحد فيه جديداً هذا المقصد فلماذا الخلاف حوله؟ [20].

الأمة تحتاج لمن يحمل همها والشعر يمكنه أن يكون جزءاً من المعركة كشعر وليس كجدل حول العروض والقوافي والأوزان ...!!!!، فكان ردنا:

– نعم ما زلت أفاجأ بقلة طلب المكاتب في بلادنا سوريا ولبنان حتى وفي مصر كذلك على الشعر ماذا يعني ذلك؟ هل بات لغة الغناء فقط؟، والأمة ثملة من فيضانها بلا حاجة؟

هل هذا يحتاج نمطاً آخر من التجديد والتطوير وأننا مازلنا نجتر ما يمكن تطويره وتحويله للأفضل، وهل هي طريقة التفكير التي تحتاج لذلك أم الأنماط؟، وكيف؟

هل لهذا جذور واقعية غائبة عن مجال تفكيرنا؟، يقول الدكتور "محمد خير الدين عبد الرحمن": إن التعليم في أغلبية الدول العربية وبمراحله كافة ، يتصف بتردي النوعية وافتقار الطلبة للمهارات الأساسية للتعليم الذاتي، وغياب النقد والإبداع وغياب التركيز المبرمج على فروع العلم والتقانة، وهذا يسبب تخريج ملايين العاطلين عن العمل، أو ما يعرف: بالبطالة الثقافية. [21]

وإذن؟

يقول الدكتور "بدر الدين عامود" عن الإبداع: هو الشكل الأكثر رقياً وتعقيداً بين أشكال النشاط الإنساني والذي يتمثل نتاجه في الكشف عن حقائق لم تكن معروفة من قبل. [22]

لكن الدكتور صالح الرحال يعارضه في فرادة الإبداع قائلاً: لا توجد مادة مبدعة في العالم – وعبر تاريخ

فريدريك نيتشه

جان بول سارتر

توني بوزان

د.صالح الرحال

د.حسين جمعة

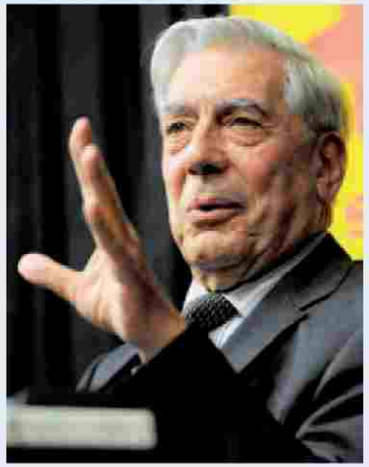

ماريو فارغاس يوسا

الإنسان – جاءت من العدم أو غير مسبوقة.[23]

✹ ✹ ✹

3- أفكار إضافية تربوية عن معوقات الإبداع:

يقول "توني بوزان" : إن القيود الفكرية تؤدي إلى إعاقة بعض العقول العظيمة التي شكلتها الفلسفة والعلم.[24]

هل كان يعني القولبة المنهجية في عالم التدريس؟، هل كان يعني تقييد عملية الإبداع؟، هل كان يعني حصر حرية الرأي؟.

لكن بكل الأحوال كانت كلمة بعض دقيقة جداً لمن لا يملك أدواتا وإرادة تكفيه لاستمرار عملية الإبداع.

والجدير بالذكر إن الإبداع العربي سبق الفكر النقدي بأشواط ،وهذا ما أقره الدكتور: "محمد عناني" في كتابه: المصطلحات الأدبية الحديثة.

ولكن ..ألسنا بحاجة هنا إلى عنصر الجمال ليكمل تلك اللوحة الفريدة الإبداعية؟

إن مفهوم الجمال عند الجاحظ يعتبر قيم عليا، تنحصر بالحق والخير والجمال خاصة عند الفلاسفة، رغم أنهم اختلفوا في تحديد موضع القيمة، والعرب عموما لم يعرفوا في جاهليتهم سوى بعض الفنون اللسانية ،والجمال ليس من نصيب كل الناس كما نعلم، لذا حصرها الجاحظ في موقع الشعور والعقل، وهما القيمة العليا ،وهنا أسس لقيمة الجمال ببعديها العربي والإسلامي، حيث اجتمع الشعر والغناء والقيان.[25]

إن الجمال عند الجاحظ هو أمر أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره.

إن أعمال سارتر الأدبية في رواياته ومسرحياته حاولت تقديم مفاهيم فلسفية وجودية بصورة مباشرة؛ مارس فيها قسراً فكرياً مسبقاً.

ونيتشة يطلق روح الفرد في " العالم طاقة جامحة " و " سباحة في بحر من عدم الانتظام "، فلم يعد هنا الجمال كل ماهو نظام دقيق متجانس منسق ، فهو إما مستبد ، أو وهمي بنظرة فوكو؛ حتى في رواية فلوبير " مدام بوفاري " خالفت قوانين عصرها ، ففي نظرية أنشتاين نقول (إنها أفضل من ارشميدس) ، لكن في الأدب لا نستطيع اعتبار أوليس جيمس جويس أفضل من أوديسة هوميروس، لأنها أحدث.

فبعض المفاهيم تشكل ألاعيب لغوية نقلت زاوية المبدع الخاصة التي يرى منها العالم ، ولم تنقل العالم الذي نراه، وهي هنا تلبي حاجتها الخاصة في تقديم نظريتها.[26]

ولنا جولات أخرى بإذن الله حول الإبداع إن شاء الله.

المصادر:

1 – انظر كتابه (الشعر والفن والجمال) ، أو الكتاب الالكتروني (أسئلة الحداثة بين الواقع والشطح) لميخائيل عيد من منشورات اتحاد الكتاب العرب :
2Ftiny__mce%2Fplugins%http://www.google.com/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&frm=1&source=web&cd=10&ved=0CGQQFjAJ&url=http%3A%2F%2Fuqu.edu.sa%2Ffiles2
2F8012.pdf&ei=efvpT7v3EMOQ8QOQifWBDg&usg=AFQjCNGcdY0e0eiVQJGXcseYoBEnA6S6fg&sig2=ydiADgbUrMC6%2F8000%%2Ffilemanager%2Ffiles%2F4280294
JbhMXC3klw

2 – راجع كتاب الأدبية والناقدة المذكورة "المعنى خارج النص" ص 125

3 – راجع الرابط: http://www.art.gov.sa/t5943.html

4 – راجع مجلة"التراث العربي العدد 127 ، والبحث: التناص في شعر العهدين الزنكي والأيوبي، للأستاذ المذكور وهو سوري طالب في كلية اللغة العربية بجامعة البعث. ص 171

5 – راجع أصل الموضوع في الرابط: http://www.omferas.com/vb/t39473/

6- لبنى العيسى: راجع الرابط: http://www.omferas.com/vb/t41154/

7- الرابط السابق: http://www.omferas.com/vb/t41154/

8- الأسبوع الأدبي العدد 1389 :20-4 2014 السنة التاسعة والعشرون، مقال: فن بناء الشخصية في فن الرواية العربية، بين التقليد والحداثة.

9- للمزيد عن الباحثة: http://www.diwanalarab.com/spip.php?article3218

10- انظر في كتاب جان روبنسكي:النقد الأدبي.

11 - المصدر السابق نفسه.

12- راجع كتاب"رحلة في جماليات رواية أمريكا اللاتينية"للمؤلفة المذكورة ص 133-135

13 - دكتورة سورية من حلب تساهم في تنمية روح الطموح عند الشباب.

14- راجع مجلة المعرفة العدد 484 مقال صورة الإبداع من التراث إلى المعاصرة- د.حسين جمعة.

15- للمزيد عن الدكتورة: https://www.google.com/#q=%D8%AF%D9%87%D8%A7%86%D8%AC%D8%A7%D8%AD+%D9%88%D8%B1%D8%A9+%22%D9%83%D8%AA%D9%
87%D8%A7%86%D8%88%D9%%D8%B1%D9+.22%86

16 - من دراسة للدكتورة المذكورة: المرأة العربية والإبداع في سوريا- مجلة المعرفة العدد 483 كانون الأول 2003

17 - المصدر السابق

18- المصدر: http://www.omferas.com/vb/showthread.php?t=46452

باحث مهم من فلسطين .

كان للشعر قديما تأثيره الباهر : يروى عن معاوية بن أبي سفيان كان يقول: "يجب على الرجل تأديب ولده والشعر أعلى مراتب الأدب" . كما يروى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعمر وابن عبا س رضي الله عنهم أنهم من رواة الشعر فقد روي عنها أنها قالت: رَوِيت للبيد بن ربيعة العامري أكثر من ألف بيت خلاف ما رويت لغيره.

وعن قوة تأثير الشعر في القلوب والمشاعر أن قتيلة بنت النظر بن الحارث لما قتل النبي صلى الله عليه وسلم أباها يوم بدر قالت أبياتاً منها:

يا راكِبًا إنَّ الأثيلَ مظنّةٌ
من صبح خامسة وأنت موفقُ
أبلغ بها مَيْتًا بأنَّ تحيةً

قيل فلمَّا بلغت النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى أخضلت لحيتُه وقال " لو بلغني شعرُها قبل أن أقتله ما قتلته. والأمثلة على منزلة وأهمية الشعر عند العرب في عصر ما قبل الإسلام وبعده كثيرة لا تحصى.

لآخر الأبيات

(بحث الأستاذ عبد الله باسودان) على الرابط http://www.nabee-awatf.com/vb/showthread.php?t=15843

21 – مجلة المعرفة العدد 567 كانون الأول 2010 البحث: "تصويب التعامل مع ذاتنا الغوية وبها "للدكتور المذكور أعلاه.

22 – انظر دراسته بعنوان" الإبداع ودور اولعي واللاوعي فيه. العدد 493 من مجلة المعرفة ،تشرين الأول 2004.

23 – انظر دراسته بعنوان "تجليات النص ومكابدات النقد" في عدد 493 من مجلة المعرفة تشرين الأول 2004.

24 – من كتاب استخدم ذاكرتك، لتوني بوزان، ص 40.

25 – راجع العدد 484 من مجلة المعرفة 2004 مقال: "مفهوم الجمال عند الجاحظ للدكتور مختار قطش.

26- مقتبس بتصرف عن بحث في مجلة الرافد العدد 177 للباحث جمال حسن بعنوان "الفن طاقة جمالية .. تعريفات ورؤى متعددة للفن" ص 105

من ديوان الشاعر أنور العطّار «مع قصائد الخالدين»

العليقة

للشاعر المغترب إيليّا أبو ماضي

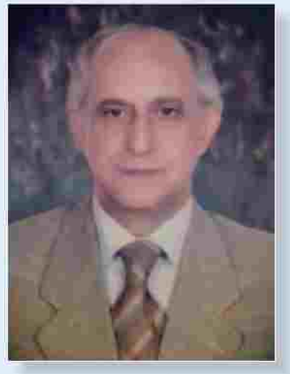

هاني أنور العطار

... هذه القصيدة الفريدة حوارٌ فلسفي بين الشاعر والعُلَّيْقَة (شوكة الأرض) دار على نحو عجيب فدلَّ على إرتباط الإنسان بالأرض، و ندائها له، و طمعها في أن تغيِّب ابنها في قلبها على نحو ما تغيِّب الأم طفلها في صدرها ، أليست الأرض أماً ثانية لنا : نفترش غبراءها ، و نلتحفُ زرقاءها، و نعبُّ ماءها، و نستنشقُ هواءها، ثمَّ تضُمنا أعطافها ، و تغيِّبنا ألفافها:

إن سئمتَ الحياةَ فارْجِعْ إلى الأر
ضِ تنَمْ آمناً من الأوْصَابِ
تلكَ أمٌ أحْنَى عليكَ من الأمِ
التي خبَّأتكَ للأتعابِ
لا تخف فالمماتُ ليسَ بماحٍ
منكَ إلاَّ ما تشتكي منْ عذابِ
و حياةُ المرءِ اغترابٌ فإنْ ما
تَ فقد عادَ سالماً للتُّرابِ

✹ ✹ ✹

... خرج الشاعر ذات صباح من داره الريفيَّة في بروكلين (نيويورك) فأخذته غشيَّة من غشياته الشعرية، فغاب عنه، و ضاع في عالم لذيذ الضياع، ساحر الفقدان، فما راعه – و قد أخذت به خطاه في طريق ريفيّ شائك وّعر، أطلّت عوسَجاته و عليّقاته فاغرةً أفواهها، تطمع أن تجتذب إلى الأرض أبناء الأرض – راعه أن تعلّقَ ثيابه وتشتبك بمخالب العليقة، فانحنى عليها ينقض عُقَدَهَا، دافعاً عنه أنيبها التي أخذت بأطراف ثوبه و يقول لها في مثل دَعَة الطفل و لراءته:

لا تلُجّي في اجتذابي أو فتلّجّي في الجْتذابي
إنَّ عوداً فيه ماءٌ ليس عُوداً لاحتطابِ
أنا في فجر حياتي أنا في شَرْخِ شبابي
الهوى ملءُ فؤادي و الصِّبا ملءُ إهابي
و المُنَى تَنْبُتُ في دَرْ بي، و تمشي في ركابي
أنا لم أضْجَرْ من العَيـ ش، و لم أمْلل صحابي
لم أزَلْ ألمَحُ طَيْفَ الـ مَجدِ حتى في السَّرابِ
لم أزَلْ أستشعرُ اللّـ ـذَّةَ حتى في العذابِ
لم أزَلْ أستَشْرِفُ الحسـ ـسنَ و لو تحتَ نقابِ
ما بنفسي خَشْيَةُ المَو ت و لا منه ارتهابي

✹ ✹ ✹

أنا للأرض، و إن طا لَ على الأرض اغتِرَابي
غَيْرَ أنّي لَمْ يَزَلْ ضَرْ عِي لِمَرِي و احْتِلابِ
لَمْ أهَبْ كُلَّ الذي عِنْـ ـدي و لم يَفْزَعْ وطابي
أنا نهرٌ لم أتَمِّمْ بعدُ في الأرضِ انسيابي
أنا رَوْضٌ لم أذِعْ كُلَّ عبيري وَ جَلابي
أنا نجمٌ لم يُمَزِّقْ بَعْدُ جلبابَ الضَبابِ
أنا فجرٌ لم يُتَوِّجْ فضَّتي كُلَّ الروابي
لي رغَبَّاتٌ لم تَلِد بَعْـ ـدُ فتَتبَلّى بالتَّبابِ
بنفسي ألفُ مَعْنىً لم يُضَمَّنْ في كتابِ

✹ ✹ ✹

فإذا استنفدتُ ما في دَنِّ نفسي من شَرَابِ
و إذا أنْجُمُ آما لي توارت في الحجابِ
وإذا لم يَبْقَ في غَيـ ـمي ماءٌ لانسكابِ
و إذا ما صِرْتُ كالعُلْـ ـيْقِ تمثالَ اكتآبِ
لا يُزَجِّيني مُحْتاجٌ و لا يَطْمَعُ سَابِ
فاجْتَذِبيني ... إنْ يَكُنْ مني تَفْعٌ للترابِ

✹ ✹ ✹

... و في مثل هذا الحوار الشعريّ الأخّاذ الذي كان ينسكب انسكاباً كماء الجدول، و ينطلق انطلاقاً كشدو البلبل، رضيَتْ العُلَّيْقَة أن تعفَّ عن فريستها قائلةً لأنيابها ومخالبها: قَصْرَك الآن عن هذا السائح العَجْلان وانظريه قليلاً ريثما يُتَمِّمُ نَهْرُهُ انسيابَه في الأرض، ويذيعُ عطره، و ينشرُ عبيره، ففضة فجره لم تتوج الروابي البعيدة، و نجمُ حياته لم يُمَزِّقْ بعدُ جلباب الضَّباب، ولم يبرز من الغياهب و الظلمات.

✹ ✹ ✹

... و أقبل الصباحُ ذاتَ يوم ، و قد اسْتَنْفَدَ الشاعر ما في دنانه من شراب وأخذ نجمُ آماله يتوارى في حجاب الصمت، و لم يَبْقَ في غيمه ماءٌ ينهلُّ و ينسكب، ورأى في نفسه الذّاوية الذابلة مَشَابَة من ذَوِي النَبت وذبوله فصاح صيحة الطائر المجروح:

... أأنا تِمْثالُ اكتئاب، لا يُرَجِّيني مُحتاجٌ ولا يطمعُ في طامع، أين أنت يا عُلَّيقَتي الحبيبة، هلمّي انشبي مخالبك في لحمي و عظامي واجتذبيني إليك ... هيَّا اجتذبيني إلى أمِّي الأرض، فلقد طالت وحشة هذا الغريب، وسالت جراحه وتشققت ثيابه، وأخذت دماؤه تتصبَّب صابغة مسالكه، هيَّا اجتذبيني أيتها العُلَّيقة لأنعم بنداوة التراب في حفرة تُنَدِّيها الغمائم، و تغنيها الحمائم، وتتسايل فيها الجداول، و ترفرف عليها الخمائل، وتتساجل في بحبوبتها البلابل:

إنَّ الموتَ نهاية، وإنَّه بداية، وإنَّه للعبقري حياةٌ وخلود

يا مَوْتُ هَا أنْذا فَخُذْ ما أبقت الأيَّامُ منـي
بيني و بينكَ خطوةٌ إنْ تَخْطُها فَرَّجْتَ عنّي
... و هكذا انتهت حياة صاحب "الجداول" و "الخمائل" في الأرض، لتبدأ ثانية في عالم الخلود:

الخالدون جمال الأرض ما طلعوا
و الخالدون سنا الآباد ما همدوا
في العبقرية أحقابٌ لهم قُشُبٌ
و في البطولة آبادٌ له،م جُدُدُ
عاشوا جمال الدُّنا نَزَلَت
بهم منا ياهُمُ بين الوَرَى خَلَدوا
كأنما يبدءونَ العُمُرَ ثانيةً
فإنّ هُمُ لَفَظوا أنفاسَهم وُلِدُوا

أنور العطّار